مَعْرَكَةُ الجَمَل

(في ضوء الكتاب والسنة)



معركة الجمل..

«في ضوء الكتاب والسنة»



الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الشؤون الفكرية والثقافية
١٤٣٥ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ

خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

سورة الأنفال : الآية – ٢٥

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين ولا سيما بقية الله في الأرضين.

في العاشر من شهر جمادي الأول سنة ٣٦هـ بدأت معركة الجمل لتنتهي بعد أيام والنتيجة آلاف القتلى من طرفين مسلمين «ولأول مرة»، الطرف الأول هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو الإمام بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وبأمر من الله سبحانه وبإجماع المسلمين وهو إمام بايعه المهاجرون والأنصار فوجبت إمامته فهو على كل حال إمام يجب إطاعته ويّحرم الخروج عليه وقد ذكر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن الحق معه يدور حيث دار،وخلف هذا الإمام جماهير الأمة التي بايعت على الطاعة وفي الطرف الآخر صحابيين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وهما من السباقين إلى أعلان الإسلام ومعهم زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفهم الآلاف ممن استجابوا لدعوتهم تحت شعارات أقنعت تلك الآلاف لأنها صادرة من ثلاثة لهم تأريخ مجيد ومنازل محترمة عند المسلمين ويمكن دراسة هذه الحادثة من الجانب التأريخي بدءاً من الثورة على الخليفة الثالث وقتله ومبايعة الجماهير للإمام عليه السلام بيعة شعبية ولأول مرة في عهد ما بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وبدء الإصلاح العلوي وأول ذلك الإصلاح

عـزل أمـراء الجـور والتسـوية في العطـاء وعدم توليـه من مد عنقـه للولاية مما أدى بالأمـراء السـابقين وبأيديهم الأموال الطائلـة للتحـرك والخـروج علـى حكومة الإمـام عليه السلام والتقت مصالحهم مع طالبي الولاية والتي لم يحصلوا عليها وأسـباب أخرى أدت إلى معركة انسـحب قائدهـا الأول قبل المعركة وقتل خـارج المعركـة وقتـل قائدها الثانـي في بدئها بسـهم جاءه من نفس معسـكره وبقي المعسكر تقوده امرآة وهو يحمي هذه المرأة ولم يصمـد أمام جيش الكرار إلا أيام قلائل كتب النصر بعدها للشرعية ورجع باقي المعسكر لم يحقق شيء من أهدافه. وهذا الجانـب التأريخـي لا يعنينا بل نحاول أن نـدرس هذه الحادثة وفقـاً للقرآن الكريم والسـنة الشـريفة حتـى لا يكون الحديث حديثاً لسنا مسؤولين عنه بل حديث يقع في صلب مسؤوليتنا.

نسأل الله سبحانه أن يشغلنا بما يسألنا غداً عنه

بمحمد وآله الطاهرين

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

لماذا نقرأ التأريخ:

لعل متسائل يقول لماذا نقرأ التأريخ؟ أليس من الأولى أن نهتم بالحاضر والمستقبل؟ أليس في نبش الماضي نبش للأحقاد والضغائن؟ لماذا لا نترك الماضين وقد رحلوا إلى ربهم وحسابهم عليه لا علينا؟ أليس الأرشد والأصوب أن نقول ما قاله: «ابن السبكي: ونمسك عما جرى بين الصحابة، ونرى الكل مأجورين وشرحه ابن ا لمحلّى: ونمسك عما جرى بين الصحابة من المنازعات وا لمحاربات، التي قُتل بسببها كثير منهم، فتلك دماء طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا، ونرى الكل مأجورين في ذلك؛ لأنه مبني على الاجتهاد في مسألة ظنية، فيها أجران على اجتهاده وإصابته، وللمخطئ أجر على اجتهاده»[1]، فنقول عن سيل الدماء ا لجاري أن تلك الدماء طهر الله عنها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا كما ينسب ذلك إلى عمر بن عبد العزيز مرة وإلى أحمد بن حنبل مرة؟ وا لجواب عن ذلك في عدة وجوه:-

أولا :سنة قرانية

إن ذكر الاختلاف والاقتتال بين أتباع الرسل مسألة طرحت من قبل القرآن الكريم كما سيمر علينا ذلك فلا حرج ولا

(١) حاشية العلاّمة البناني على شرح ابن المحلّى على متن جمع الجوامع ٢ / ٤٢٢.

حرمة في ذكر شيء ذكره القرآن الكريم وبيّن للمسلمين حكمه وهذه المسألة كانت مركوزة في أذهان الأمة فقد «جاء سعد بن أبي وقاص فدخل على معاوية فقال ما منعك من القتال فقال يا أمير المؤمنين هبت ريح مظلمة فلم أبصر الطريق فقلت أخ أخ فأنخت حتى أسفرت عني فركبت الطريق فقال له معاوية والله ما قال الله في شيء مما أنزل أخ ولكنه قال:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾[١].

فوالله ما كنت مع الباغية على العادلة ولا مع العادلة على الباغية ولا أصلحت كما أمرك الله فقال له سعد إنك لتأمرني أن أقاتل رجلا سمعت فيه من رسول الله ﷺ يقول له أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي فقال له معاوية من سمع هذا معك فقال فلان وفلان وأم سلمة فقال والله لو سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما قاتلته»[٢].

ثانيا: سنة نبوية

---

(١) الحجرات/ آية ٩.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ابن عساكر ج ٢٠/ ٣٦١

إن الرسـول الأكـرم ﷺ قـد ذكـر ذلـك في سـنته وبـيّن جانب الحـق وأعطى حكمه الواضح في هذه المسـألة فهل المطلوب منا أن نسـكت عن ما تحدث عنه رسـول الله ﷺ؟ أو لسـنا مطالبين بمتابعة سنة النبي ﷺ؟ أوليس رسول الله ﷺ أسوتنا وقدوتنا؟ وقـد ترك الأمة على المحجـة البيضاء ليلها كنهارها فمثلاً أنه ﷺ أخبر في السـنة الأولى للهجرة وفي بناء مسـجد النبي ﷺ عن مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه وهذا ما حدث بعد خمس وثلاثين سنة وأخبر أن قاتليه بغاة لذلك «لما قتل عمار، دخل عمرو ابن حزم على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار.وقد سمعت رسول الله صلـى الله عليـه وسـلم يقول: تقتلـه الفئة الباغيـة فقام عمرو فزعا إلى معاوية فقال: ما شأنك؟ قال: قتل عمار. قال: قتل عمار، فكان ماذا؟ قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: تقتله الفئـة الباغية ، قال: أنحن قتلنـاه؟ وإنما قتله علي وأصحابه، جـاؤوا بـه حتـى ألقوه بـين رماحنـا، أو قـال: بين سـيوفنا»[1]، وسـنرى تصريحه ﷺ في شأن معركة الجمل ولا يسع المسلم إلا اتباع سنة النبي ﷺ في كل ذلك.

ثالثا:وظائف شرعية

إن مثـل هـذه المسـائل ليسـت تأريخية بحتـة بحيث لا تمس المسـلم في هـذا الزمـان وغير هذا الزمـان لعـدم مدخليتها في

(١) سير أعلام النبلاء١/٤٢٦

وظائفه الشرعية فهناك وظائف شرعية تتوقف على معرفة ذلك.

أ- الحب والبغض في الله فـ«عن عبد الله بن مسعود قال دخلت على رسول الله ﷺ فقال يا ابن مسعود أي عرى الإيمان أوثق قلت الله ورسوله أعلم قال أوثق عرى الإسلام الولاية في الله والحب فيه والبغض»(١)، وفي القرآن الكريم نجد أن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يجتمعان مع موادة من حاد الله ورسوله فقال تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

فـ«لا يكون مؤمنا بالله واليوم الآخر من كان على مودة لمن حاد الله ورسوله إذ لا يتفق أن يجمع المرء فى قلبه بين ولائه

(١) المعجم الأوسط الطبراني ج ٤ [٣٧٧]

(٢) المجادلة/٢٢

لله، وولائه لأعداء الله فلا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يـوادون مـن حـاد الله ورسـوله ولو كانـوا آباءهـم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم في سبيل الولاء لله ولرسوله، ينقطع كل ولاء مـع من حاد الله ورسـوله، ولو كان ذلـك بين الأب وابنه، أو الابن وأبيه، والأخ وأخيه، والعشير وعشيره وقوله تعالى:

«أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ».

أي أولئـك الذيـن يخلصـون ولاءهـم لله مـن المؤمنـين بالله ورسـوله، ويقطعون فى سـبيل ذلك كل ولاء لهم مع أعداء الله مـن أهل وعشـير»[١]. فالمطلوب من المسـلم أن يحب ويبغض في الله سبحانه فلا يواد من حاد الله ورسوله و يوالي المؤمنين ف:

﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

ب- معرفة المصدر الصافي للإسـلام فبهذه الغربلة يعرف من أين يأخذ دينه وهذا الأمر بالأهمية بمكان بحيث لا نسـتطيع

(١) التفسير القرآني للقرآن، ج١٤، ص: ٨٤٥

(٢) التوبة/ ٧١

معرفة المنظومة الدينية أصولاً وفروعاً وأخلاقاً وغير ذلك إلا بهذه المعرفة وقد أشار أمير المؤمنين إلى تأثير بعض من عاصر رسول الله ﷺ في وجود اختلاف الناس بعد فترة وجيزة من رحيل الرسول ﷺ فمن ضمن رواة الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ «رجل منافق يظهر الإيمان متصنّع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرّج أن يكذب على النبي متعمداً، فلو علم الناس أنّه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه ولكنّهم قالوا هذا صحب النبي ورآه وسمع منه ، فأخذوا عنه وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [1] .

ثم بقوا بعده ، فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان والكذب، فولوهم الأعمال وحملوهم على رقاب الناس وأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله» [2] . والنص –وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام– يذكر آخرين ليسوا بهذا المستوى فبعض نسى أو غير حافظ بصورة مضبوطة أو سمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ وغير ذلك ولا ندعّي أن المتصارعين ينتمون إلى هذا الصنف أو ذاك لكنهم على كل حال قد خرجوا من طاعة الله ورسوله.

---

(١) المنافقون/ آية٤.

(٢) - شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١١

ج- هـل مـن الممكـن أن يتخـذ المسـلم المعاصـر أي من طرفي الصـراع أسـوة حسـنة بما لهـذه النقطة مـن حساسـية كبيرة وخطـورة فهـل على الأجيال الإسـلامية على مـدى الزمان أن تتبع الجيل الأول من المسـلمين بالفرقـة والقتال أم يلتزم أمر الله ورسوله بالوحدة والائتلاف؟

الاختلاف في القرآن

سبق وأن قلنا بأن القرآن الكريم تطرق لمسألة الاختلاف بين الناس والاقتتال بـين أصحاب الدين الواحد وهذا عذر وحجة لمـن يتكلـم في هذا الموضوع لأنـه يجري مجرى القـرآن خاصة إذا وقـف علـى بيان القـرآن وحكمه فلا يتعـداه إلى غيره مهما كان هذا الغير ومن أي مصدر صدر فبعض الأحيان تكون هيبة المصـدر وكـبره وعظمتـه في عـين المتلقـي يكون سـبباً في قبول الصـادر فـإذا تحدث القرآن فـلا داعي للبحث عـن الموضوع في مصدر آخر ولا داعي أيضاً للسـكوت عـن هذا الموضوع القرآني وسـيجد قارئ القرآن أن الكتاب المجيد تحدث عن هذا الموضوع وبـكل وضوح فبـيّن أن هناك «اختلافان: اختلاف في أمر الدين مسـتند إلى بغـي الباغين دون فطرتهـم و غريزتهم، و اختلاف في أمـر الدنيـا و هـو فطري و سـبب لتشـريع الديـن، ثم هدى الله سبحانه المؤمنين إلى الحق المختلف فيه بإذنه، و الله يهدي

من يشاء إلى صراط مستقيم»[١]. وواضح أن الاختلاف في أمر الدنيا بسبب التزاحم واختلاف القابليات قد حسم بإرسال الرسل والأنبياء وإنزال الشرائع وبكلمة ثانية حُسم الاختلاف بالقوانين الإلهية فهذه القوانين لابد أن تكون مدعاة إلى وحدة المجتمع وعدم اختلافه وهو بالفعل كذلك إلا أن البغي وهو تعدي الحدود بين أتباع الدين الواحد هو الذي يؤدي إلى الاختلاف مع وجود العلم بفعل الدلائل الواضحات البينات ووضوح الحق قال تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٢].

وقد قال الآلوسي في تفسيره للآية الكريمة «الذي اختلفوا فيه الإسلام كما يشعر به السياق والتعبير عنهم بهذا العنوان زيادة تقبيح لهم فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح، وقوله تعالى: «إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ « زيادة أخرى فإن الاختلاف بعد مجيء العلم أزيد في القباحة والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات، والمراد من مجيء العلم التمكن منه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص: ١١٢

(٢) آل عمران/ آية١٩.

لسطوع براهينه، أو المراد منه حصول العلم بحقيقة الأمر لهم بالفعل ولم يقل علموا مع أنها إشارة مختصرة إلى أنه علم بسبب الوحي، وقوله سبحانه: ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ زيادة تشنيع»[١]، وقد نهى الله سبحانه هذه الأمة عن أن يكونوا متفرقين كتفرق الأمم السابقة فتقع بما وقعت به الامم السابقة فنهاهم عن ذلك فقال:

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

وقد فُسرت الآية بالمأثور فقد «أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قال أمر الله المؤمنين با لجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين الله وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قال: هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قال من اليهود والنصارى وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص: ١٠

(٢) آل عمران/ آية ١٠٥.

والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم افترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة و تفرقت النصـارى على ثنتين و سـبعين فرقة و تفـترق أمتي على ثلاث و سـبعين فرقـة وأخـرج عبد بـن حميد عن الحسـن قال كيف يصنـع أهـل هذه الأهواء الخبيثة بهذه الآية في آل عمران ﴿وَلا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُـوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ﴾ قـال نبذوهـا ورب الكعبة وراء ظهورهم وأخـرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن أهل الكتاب تفرقوا في دينهم على ثنتين و سـبعين ملة و تفرق هذه الأمة على ثلاث وسـبعين ملة كلها في النار إلا واحدة وهي ا لجماعـة ويخـرج في أمتي أقوام تتجارى تلـك الأهواء بهم كما يتجارى الكلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله وأخـرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يأتي على أمتي ما أتى على بني إسـرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان فيهم من نكح أمه علانية كان في أمتي مثله إن بني إسـرائيل افترقوا على إحدى وسـبعين ملة و تفرق أمتي على ثلاث و سبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة فقيل لـه مـا الواحدة قال ما أنا عليـه اليوم و أصحابـي»[1]. والملفت للنظر أن الاختلاف في هذه الأمة أوسـع منه في الأمم الأخرى ومعلـوم أن الصحابة المعنيين بهـذا الحديث هم غير الصحابة الذيـن أشـار إليهم النـبي ﷺ في أحاديث الحـوض وغيرهم من

(١) الدر المنثور في تفسير المأثور، ج٢، ص: ٦٣

المنافقــين الذي أشـار القــرآن لوجودهم ولعـل تقييد جملة ما أنـا عليه وأصحابي بـ«اليوم» أشـار إلى رجوع بعضهم بعد هذا اليـوم. لكن رغم هـذا النهي الإلهي نجد أن الأمة قد وقعت وفي يومهـا الأول في الفرقة التي نُهيت عنهـا وبُعدت عن الاعتصام بحبـل الله الـذي أمروا أن يعتصموا به بـل وصل الخلاف بينها إلى الاقتتال .

سبب الاقتتال

عندما نسأل القرآن الكريم عن سبب اقتتال أتباع الرسل بعد الرسل فتأتي الإجابة واضحة صريحة فبعد ذكر تفاوت الرسل وتفاضل بعضهم على البعض الآخر يقول القرآن:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [١].

والآية كما يفسـرها مفسـر معاصـر «أي وقع الاختلاف بين أتباع الرسـل، فكان منهم المؤمنون و كان منهم الكافرون، و كان

---

(١) البقرة/ آية ٢٥٣.

من ذلك أن اقتتل المؤمنون و الكافرون

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾

أي و لو شاء الله ما اقتتلوا مع وجود هذا الخلاف بينهم

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

أي فوقع القتال بينهم لما أراد الله من حكمة يعلمها، و لما قضى به من خير وراء هذا الذي يحسبه الناس شرا . و لكن أكثر الناس لا يعلمون»[(١)]، ومثل هذا وقبله ورد، ففي أحد حروب أمير المؤمنين عليه السلام جاءه رجل «فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء القوم الذين نقاتلهم الدعوة واحدة، و الرسول واحد، والصلاة واحدة، والحج واحد، فبم نسميهم؟ فقال: بما سماهم الله تعالى في كتابه. فقال: ما كل ما في كتاب الله أعلمه قال: أما سمعت الله تعالى يقول في كتابه:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ .

---

(١)التفسير القرآني للقرآن، ج٢ ، ص: ٣١٥

فلمـا وقـع الاختلاف كنا نحـن أولى بالله عز وجـل، وبالنبي ﷺ، وبالكتـاب، وبالحق، فنحـن الذين آمنوا، وهم الذين كفروا، وشاء الله قتالهم بمشيئته وإرادته»[١]، ولا يفهم القاريء الكريم أن هـذا الكفـر هـو الكفر الذي يخـرج صاحبه من الملة فلسـنا نكفـر أحد من أهل القبلـة لا من الأولين ولا من الآخرين لكن للكفر مراتب كثيرة منها ما هو مخرج ومنها ما ليس كذلك.

الاختلاف بين الصحابة:

لعـل قائـلاً يقـول - وقـد قيـل مثـل ذلـك - أن الآيـات التي تتحدث عن اختلاف الأمم واقتتالها لا يشـمل قتال الصحابة فيما بينهم لمكانتهم العالية والقرب من رسـول الله ﷺ والمديح الإلهـي الكبير للصحابـة في القرآن فلا يمكن أن يكون أصحاب هذا المدح مشمولين لآيات الاختلاف وبالخصوص أهل بدر فعن «عبـد الرحمن بن حاطب بـن أبى بلتعة أنه حدثه إن أباه كتب إلى كفار قريش كتابا وهو مع رسول الله ﷺ قد شهد بدرا فدعا رسول الله ﷺ عليا والزبير رضي الله عنهما فقال انطلقا حتى تدركا امرأة ومعها كتاب فأتياني به فانطلقا حتى أتياها فقالا أعطينـا الكتـاب الـذي معك واخبراهـا إنهما غـير منصرفين حتـى ينزعـا كل ثـوب عليهـا فقالت ألسـتما رجلين مسـلمين

---

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج١، ص: ٥١٥

قالا بلى ولكن رسـول الله ﷺ حدثنا إن معك كتابا فلما أيقنت أنها غير منفلتة منهما حلت الكتاب من رأسها فدفعته إليهما فدعا رسـول الله ﷺ حاطبا حتى قرأ عليـه الكتاب قال أتعرف هـذا الكتاب قال نعم قـال فما حملك على ذلك قال كان هناك ولـدي وذو قرابتي وكنت امرأ أعرابيا فيكم معشـر قريش فقال عمر رضي الله عنه ايذن لي يا رسـول الله في قتل حاطب فقال رسـول الله ﷺ لا إنـه قد شـهد بدرا وإنك لا تـدري لعل الله قد اطلـع على أهل بدر فقال اعملوا ما شـئتم فإني غافر لكم»[1].

ولا يسـعنا التصديـق بصـدور ذلك عن رسـول الله ﷺ وخاصة مـع مخالفته لصريح القرآن الكريم في تصنيفه لأهل بدر إلى مؤمنين وآخرين:

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد فُسر ذلك ب« الْمُنافِقُونَ من أهل المدينة، أو نفر من قريش كانـوا أسـلموا وبقوا بمكة، فخرجوا يوم بـدر مع الكفار، منهم: قيـس بن الوليـد بن المغيرة، وأبو القيس بـن الفاكه بن المغيرة، والحـارث بـن ربيعة بن الأسـود، وعلـي بن أمية بـن خلف، وَهم الَّذِيـنَ فِي قُلُوبِهِـمْ مَرَضٌ أي: شـك لم تطمئن قلوبهم، بل بقي فيها شبهة، قالوا: غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ أي: اغتر المسلمون بدينهم،

(١) المستدرك الحاكم النيسابوري ج ٣ [٣٠٢]

فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. فأجابهم الحق تعالى بقوله:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ .

أي: غالب لا يذل من استجار به، وإن قلّ، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل، ويعجز عن دركه الفهم»[1] وإن كنا لانوافق على إطلاق صفة النفاق على من أسلم سراً وخرج مع الكفار قهراً.

التحذير من الفتنة

حذر الله سبحانه المسلمين - وا لجيل الاول أول المخاطبين بذلك - من فتنة يبتدؤها خصوص الظالمين منهم لكل شرها وشررها لايختص بهم بل يعم غيرهم أيضاً فبعد أن أمرهم بالاستجابة لله ولرسوله وبعد وصف الدعوة الإلهية بأنها دعوة للحياة الحقيقية وإعلامهم أن الله قريب منهم يحول بين المرء وقلبه يضيف على ذلك الأمر بالاستجابة لهذا الأمر الإلهي:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج٢، ص٣٣٩.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

وقد كثرت الأخبار بانطباق هذه الآية على معركة ا لجمل فقد «أخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف قال قلنا للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قُتل ثم جئتم تطلبون بدمه فقال الزبير رضي الله عنه إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم وأبى بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ .

ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن الزبير رضي الله عنه قال لقد قرأنا زمانا و ما نرى إنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله:

---

(١) الأنفال/ آية ٢٥.

قال البلاء والأمر الذين هو كائن وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ .

قال نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال أما والله لقد علم أقوام حين نزلت أنه سيخص بها قوم وأخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم حين نزلت هذه الآية أنه سيكون فتن و أخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال نزلت في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال هذه نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم ا لجمل فاقتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ .

قــال أخــبرت أنهم أصحاب ا لجمل»[١]، وقــد ذكرنا هذا النص على طوله لكثرة أسماء العلماء الذين ذكروا ذلك وأخرجوه في كتبهم – وهم من يعتمد كثير من المسلمين عليهم في الحديث- وقد ذكر الرازي في تفسـيره لهـذه الآية «واحذروا فتنة إن نزلت بكـم لم تقتصـر على الظالمين خاصة بـل تتعدى إليكم جميعاً وتصــل إلى الصا لح والطا لح عن الحســن: نزلت في علي وعمار وطلحــة والزبير وهو يــوم ا لجمل خاصة قال الزبير: نزلت فينا وقرأناهــا زماناً ومــا ظننا أنا أهلها فإذا نحن المعنيون بها، وعن الســدي: نزلت في أهل بدرٍ اقتتلوا يــوم ا لجمل، وروي أن الزبير كانٍ يســامر النبي صَلَّى اللّه عليه وسلّم يوماً إذ أقبل علي رضي اللّه عنه، فضحك إليه الزبير فقال رسول اللّه: كيف حبك لعلي، فقال يا رسـول اللّه أحبه كحبي لولدي أو أشــد فقال: كيف أنت إذا ســرت إليــه تقاتله»[٢]، وفي نص طويــل لابن كثير يذكر ذلك أيضــاً وينســبه إلى الأعلام فقد «قال الإمــام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا شداد بن سعيد حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد اللّه ما جاء بكم؟ ضيعتــم الخليفــة الذي قُتــل ثم جئتــم تطلبون بدمــه؟ فقال الزبــير رضــي اللّه عنه: إنا قرأنا على عهد رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم

---

(١) الدر المنثور في تفسير المأثور، ج٣، ص١٧٩.

(٢) مفاتيح الغيب، ج١٥، ص: ٤٧٤

لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت، و قد رواه البزار من حديث مطرف عن الزبير و قال: لا نعرف مطرفا روى عن الزبير غير هذا الحديث، وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم عن الحسن عن الزبير نحو هذا .و قد روى ابن جرير» : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا مبارك بن فضالة عن الحسن قال، قال الزبير لقد خوفنا بها يعني قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

و نحن مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة وكذا رواه حميد عن الحسن عن الزبير رضي اللّه عنه وقال داود بن أبي هند عن الحسن في هذه الآية قال نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير رضي اللّه عنهم، وقال سفيان الثوري عن الصلت بن دينار عن عقبة بن صهبان سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

وقد روي من غير وجه عن الزبير بن العوام، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾

يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة»[1]، وغير هذه النصوص كثير وإنما ذكرنا ما ذكرنا لتكثير الشواهد وإن المسألة معروفة بين أعلام المفسرين والمهم أن بدء الفتنة من الظالمين لكن شرها يشمل الجميع وأن المورد من موارد العقاب الإلهي الشديد وليس من موارد الرضا الإلهي.

وقفة مع ابن عاشور

ذكر ابن عاشور في تفسيره حديث رسول الله ﷺ «فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»، فجعل القتال شعار التكفير «وقد صم المسلمون عن هذه النصيحة الجليلة فاختلفوا خلافا بلغ بهم إلى التكفير والقتال، وأوله خلاف الردة في زمن أبي بكر، ثم خلاف الحرورية في زمن علي وقد

---

(١) تفسير القرآن العظيم «ابن كثير»، ج٤، ص٣٣.

كفّروا عليا في قبوله تحكيم الحكمين»[1]، ثم عدد الكثير من الاقتتال بين أتباع الدين الواحد من نصارى ويهود ومسلمين أو من أتباع ملتين لكنه كما ترى أغفل ذكرا لجمل وصفين بدعوى أن الاقتتال فيهما لم يكن عن تكفير أحد طرفي القتال للطرف الآخر بينما نجد أن القرآن يصرح بأن الاقتتال نفسه سببه انقسام أتباع الرسل إلى كافر ومؤمن .

وقفة مع مفسر حديث

فقد قال هذا المفسر الحديث في تفسيره الحديث إذ يقول عن تلك الروايات الكثيرة التي ذكرناها ومن مصادر أعلام جمهور المسلمين فيقول عنها «أما الروايات المروية في صدد صلة الآيات بالفتنة المريرة في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما فإن أثر الفتنة ظاهر فيها و يسوغ التوقف في صحتها أو القول إنها أخذت على ذلك بعد وقوع الفتن من قبيل التطبيق ورائحة الهوى والوضع الشيعيين عابقة في الحديث الذي يرويه الطبرسي عن النبي صلى الله عليه وسلم بشأن علي رضي الله عنه ولقد أورد الطبرسي مع الحديث المذكور حديثا آخر معزو إلى أبي أيوب الأنصاري ويرويه رواة شيعيون أن النبي ﷺ قال لعمّار: «يا عمار إنه سيكون بعدي هنات حتى

(١)التحرير والتنوير، ج٢ ص٤٨٨.

يختلف السيف فيما بينهم وحتى يقتل بعضهم بعضا وحتى يبرأ بعضهم من بعض فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني علي بن أبي طالب فإن سلك الناس كلهم واديا وسلك علي واديا فاسلك وادي علي وخل الناس يا عمار إن عليا لا يردك عن هوى ولا يدلك على ردى يا عمار طاعة علي طاعتي وطاعتي طاعة الله»، وأثر الصنع الحزبي بارز لذلك بقوة على هذا الحديث أيضا»[(١)]، ولا ندري ما الفرق بين الحديث ذي الصبغة الحزبية وبين ما رواه الحاكم وصححه «عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال كنت مع علي رضي الله عنه يوم ا لجمل فلما رأيت عائشة واقفة دخلني بعض ما يدخل الناس فكشف الله عنى ذلك عند صلاة الظهر فقاتلت مع أمير المؤمنين فلما فرغ ذهبت إلى المدينة فأتيت أم سلمة فقلت إني والله ما جئت أسأل طعاما ولا شرابا ولكني مولى لأبي ذر فقالت مرحبا فقصصت عليها قصتي فقالت أين كنت حين طارت القلوب مطائرها قلت إلى حيث كشف الله ذلك عني عند زوال الشمس قال أحسنت سمعت رسول الله ﷺ يقول علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا على الحوض»[(٢)].

---

(١)التفسير الحديث، ج٧، ص٣٠.

(٢)المستدرك الحاكم النيسابوري/ ج٣، ص١٢٥.

وهذا الأمر كان متسالماً عليه في أذهان الصحابة الكرام فهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وهو صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وآله في المنافقين كان يحث على ذلك فـ«قد أخرج البزار بسند جيد عن زيد بن وهب قال كنا عند حذيفة فقال كيف أنتم وقد خرج أهل دينكم يضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف قالوا فما تأمرنا قال انظروا الفرقة التي تدعوا إلى أمر علي فألزموها فإنها على الحق»[1]، و يضاف إلى هذا الحث، حث أحدى زوجات رسول الله صلى الله عليه وآله فـ«عن جري بن سمرة قال: لما كان من أهل البصرة الذي كان بينهم وبين علي بن أبي طالب انطلقت حتى أتيت المدينة، فأتيت ميمونة بنت الحارث وهي من بني هلال فسلمت عليها فقالت: ممن الرجل، قلت: من أهل العراق، قالت: من أي العراق؟ قلت :من أهل الكوفة، قالت: من أي أهل الكوفة؟ قلت: من بني عامر، قالت: مرحباً قرباً على قرب ورحباً على رحب فمجيء ما جاء بك؟ قلت: كان بين علي وطلحة والزبير الذي كان، فأقبلت فبايعت علياً، قالت: فالحق به فوالله ما ضل ولا ضل به، حتى قالتها ثلاثاً، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير حري بن سمرة وهو ثقة»[2]، وثانية من زوجاته صلى الله عليه وآله- وهي أم سلمة - تبعث بابنها للقتال بين يدي أمير المؤمنين

---

(١) فتح الباري ابن حجر/ ج١٣، ص٧٥.

(٢) الهيثمي مجمع الزوائد ٩/ ١٣٥.

عليها السلام وتكتب له «ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج، وأمرنا به من لزوم البيت لم أدع الخروج إليك، والنصرة لك، ولكني باعثه نحوك ابني، عدل نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً»[١].

أحكام خاصة

الإقرار في البيوت

لزوجات النبي صلى الله عليه وآله خصائص وأحكام خاصة بسبب تشرفهن بالارتباط بالنبي صلى الله عليه وآله ومن تلك الأحكام الخاصة، الحكم بالإقرار في البيوت فقد أمرهن المولى سبحانه :

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

و«الآية، أمر لنساء النبي، أن يلزمن بيوتهن، وألا يغشين المجالس و الطرقات إذ أن بيوتهن، هي مساجدهن التي رضين أن يعشن فيها بعيدات عن صخب الدنيا، وعن زخرفها ومتاعها وهذا القرار في البيوت، لنساء النبي- أمر طبيعي، بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فما لهن بعد هذا

(١)ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ٢١٩/٦.

مطلب يطلبنه خارج بيوتهن، من لهو أو تجارة أو نحوها ولهذا كانت الدعوة إليهن بالقرار في البيوت مقترنة بالدعوة بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله فهذا هو دأبهن في الحياة الاتجاه إلى الله، والعمل لما يرضي الله، ورسول الله»[١]، وقد مر بنا أن السيدة أم سلمة رضي الله عنها فهمت من هذه الآية أنها منهية على الخروج في رسالتها لأمير المؤمنين عليه السلام رغم معرفتها بوجوب نصرة أمير المؤمنين عليه السلام فكن لا يخرجن إلا لضرورة بل فهمت أحداهن غير ذلك فقد «قيل لسودة زوج النبي صلى الله عليه وآله مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك فقالت قد حججت واعتمرت وأمرني الله أن أقر في بيتي فو الله لا أخرج من بيتي حتى أموت قال فو الله ما خرجت من باب حجرتها حتى أُخرجت بجنازتها»[٢]، وقد رووا المنع عن الحج والعمرة أيضاً فذكروا «أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لنسائه عام حجة الوداع هذه ثم ظهور الحصر قال فكن كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة وكانتا تقولان والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم»[٣]، ولا نعرف وضوحاً أكثر من هذا الوضوح في كف زوجات النبي صلى الله عليه وآله لقتال من أجمعت الأمة على بيعته إلا النادر وهذا النادر الذي لم يبايع ليس من طبقة المهاجرين والأنصار بل من طبقة الطلقاء أو ما يشبههم .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ج١١ ص٧٠٧.

(٢)الدر المنثور ١٩٧/٥- السيوطي.

(٣) مسند احمد ج ٣٢٥/٦

حرمة الخضوع بالقول

ومـن أهم الوظائـف الخاصة بأزواج النبي ﷺ حرمة الخضوع بالقـول فيكون نتيجة لذلك طمع مرضـى القلوب ولاريب في وجودهم بين الطلقاء وغيرهم فقد نهاهن القرآن عن الخضوع في القول فقال عز من قائل:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [1].

وقد فسر ابن الجوزي «أي: لا تلنّ بالكلام

﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾

أي: فجـور و المعنـى: لا تقلـن قـولا يجد به منافـق أو فاجر سـبيلا إلى موافقتكنّ له، و المرأة مندوبـة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المقالة، لأنّ ذلك أبعد من الطّمع في الرّيبة.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

أي: صحيحا عفيفا لا يطمع فاجرا»[2].

---

(١) الأحزاب/ آية ٣٢.

(٢) زاد المسير ٣/٤٦٢.

من أهم تلك الأحكام الخاصة بهن حرمة التزويج بعد النبي ﷺ:

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (١)

وجاء في تفسير هذا المقطع القرآني آثار كثيرة فقد« أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رجل لئن مات محمد صلى الله عليه وسلم لأتزوجن عائشة فانزل الله

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾

الآية وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال بلغ النبي صلى الله عليه و سلم أن رجلا يقول إن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت فلانة من بعده فكان ذلك يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾

الآية وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات

---

(١) الأحزاب/ آية ٥٣.

عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت هذه الآية وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال قال طلحة بن عبيد الله لو قبض النبي ﷺ تزوجت عائشة رضي الله عنها فنزلت

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾

الآية وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في قوله «وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ قال نزلت في طلحة بن عبيد الله لأنه قال إذا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت عائشة»[1]، ولعل حكمة هذا التشريع أن لا تستغل مكانة أزواج النبي من قبل من يتزوجها وقد استغلت وبلا زواج فكانت النتيجة «قتل يوم ا لجمل عشرون ألفاً»[2].

لاأجتهاد مع النص

لا يسعنا القبول أن يعلل خروج زوجة رسول الله ﷺ على إمام زمانها بالاجتهاد والتأويل لأن معنى ذلك أن لا يبقى بعد هذا شيء اسمه معصية لا كبيرة ولا صغيرة فعجيب قول من

(١) الدر المنثور ٥/٢١٥.

(٢) تاريخ خليفة بن الخياط ١/٤٣.

قال «إنها كانت متأولة هي وطلحة والزبير وكان مرادهم إيقاع الإصلاح بين الناس وأخذ القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنهم أجمعين وكان رأي علي الاجتماع على الطاعة وطلب أولياء المقتول القصاص ممن يثبت عليه القتل بشروطه»[1]، ولا نعرف معنى للإقرار في البيت بعد هذا التأويل بطلب الإصلاح ولا نعلم فسادا جرى حتى يصلح أما دم المقتول فللمقتول أولياء وهم أولى بالمطالبة بدمه خاصة إذا كان الخلفية علياً وهو ممن شهد له رسول الله ﷺ بأنه لا يفارق الحق ولا يفارقه القرآن وأنه مدينة العلم وأقضى الأمة وغير ذلك كثير فلا معنى لمطالبة من ليس بولي للدم وفي غير ساحة القضاء ولا في مركز الخلافة بل في البصرة على بعد مسافات طويلة من المدينة وفي جيش ضخم يضم الآلاف من المقاتلين يتحرك من مكة المكرمة إلى البصرة

كلاب الحوأب

في الطريق يحدث شيئاً كان رسول الله ﷺ قد أخبر نساء ه به قبل الحادثة بأكثر من ربع قرن وهو من المغيبات التي أخبر بها النبي ﷺ ولنسمع ابن حجر يحدث بذلك «لما أقبلت عائشة فنزلت بعض مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب فقال أي ماء

---

(١)تحفة الأحوذي المباركفوري ج١٠/ ص٢٦٣.

هذا قالوا الحوأب بفتح الحاء المهملة وسكون الواو بعدها همزة ثـم موحـدة قالت ما أظنني إلا راجعة فقـال لها بعض من كان معها بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح اللّه ذات بينهم فقالت إن النـبي ﷺ قال لنا ذات يوم كيـف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب وأخرج هذا أحمد وأبو يعلى والبزار وصححه بن حبان والحاكـم وسـنده على شـرط الصحيـح وعند أحمـد فقال لها الزبير تقدمـين فذكره ومن طريق عصام بن قدامة عن عكرمة عـن بـن عبـاس أن رسـول اللّه ﷺ قال لنسـائه أيتكـن صاحبة ا لجمل الادبب بهمزة مفتوحة ودال ساكنة ثم موحدتين الأولى مفتوحـة تخـرج حتى تنبحهـا كلاب الحوأب يقتـل عن يمينها وعـن شمالهـا قتلى كثـيرة وتنجو من بعـد ما كادت وهـذا رواه البزار ورجاله ثقات»[1]، ولم يقتصر هذا الحديث في هذا المصدر فقـط بـل له مصادر كثـيرة فقد «أخرجه أحمـد وابن حبان في صحيحه والحاكم كلهم بإسـناد صحيح على شرط الشيخين، وقال الألباني : هو من أصح الأحاديث وصححه قبله ابن كثير وابن حجر وابن حبان والحاكم والذهبي» [2].

---

(١)فتح الباري ابن حجر ج١٣/ ص٤٦.

(٢)حسن بن فرحان المالكي- نحو إنقاذ التأريخ الإسلامي ٧٥.

مـع كل تلـك المصادر يأتـي مؤلف من المغـرب العربي ليؤلف كتـاب «العواصم من القواصـم» لينكر صدور هذا الحديث عن النبي ﷺ ويتبعه على ذلك كاتب الحاشـية على الكتاب بدعوى أنه لم يرد في دواوين السنة المعتبرة وقد رد على الاثنين العلامة الألباني بأ ن حديث نباح كلاب الحوأب قد «ثبت عنه صلى الله عليه وسـلم بالسـند الصحيح في عدة مصادر من كتب السـنة المعروفة عند أهل العلم؟! ولعل عذره في ذلك أنه حين قال ذلك لم يكن مسـتحضرا للحديث أنه وارد في شـيء من المصادر، بل لعله لم يكن قد اطلع عليها أصلا، فقد ثبت عن غير واحد من العلماء المغاربة أنه لم يكن عندهم علم ببعض الأصول الهامة من تأليف المشارقة، فهذا ابن حزم مثلا لا يعرف الترمذي وابن ماجة ولا كتابيهما! وقد تبين لي أن الحافظ عبد الحق الأشبيلي مثلـه في ذلـك، فإنـه لا علم عنده أيضا بسـنن ابـن ماجة، ولا بمسـند الإمام أحمد، فقد رأيته يكثر العزو لأبي يعلى والبزار، ولا يعـزو لأحمـد وابن ماجـة إطلاقا وذلـك في كتابه الأحكام الكـبرى الذي أنـا في صدد تحقيقه بـإذن الله تعالى فليس من البعيـد أن أبا بكر بن العربي مثلهما في ذلك، وإن كان رحل إلى الشـرق، والله أعلـم ولكـن إذا كان ما ذكرته مـن العذر محتملا بالنسـبة إلى أبي بكر بن العربي فما هو عذر الكاتب الإسـلامي الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب الذي علق على كلمة ابن

العربي في العاصمة بقوله: وإن الكلام الذي نسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وزعموا أن عائشة ذكرته عند وصولهم إلى ذلك الماء ليس له موضع في دواوين السنة المعتبرة!كذا قال: وكأنه عفى الله عنا وعنه ، لم يتعب نفسه في البحث عن الحديث في دواوين السنة المعتبرة، بل وفي بعض كتب التأريخ المعتمدة مثل البداية لابن كثير، ولو أنه فعل هذا على الأقل، لعرف موضع الحديث في تلك الدواوين المعتبرة أو بعضها على الأقل، ولكنه أخذ يحسن الظن بابن العربي و يقلده، فوقع في إنكار هذا الحديث الصحيح وذلك من شؤم التقليد بغير حجة و لا برهان .بيد أن هذا مع بعده عن الصواب، والانحراف عن التحقيق العلمي الصحيح»[١].

بيعة أمير المؤمنين

لأمير المؤمنين عليه السلام في أعناق من خرج عليه وخاصة القادة منهم بيعتان الأولى في غدير خم والثانية بعد مقتل الخليفة الثالث وإذا شك الشاكون في البيعة الأولى فلا يشك أحد في الثانية وقد ذكرها نفس أمير المؤمنين عليه السلام في أكثر من موضع في نهج البلاغة فقال «لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة، وليس أمري وأمركم واحدا إني أريدكم للّه وأنتم تريدونني

(١) السلسلة الصحيحة ١/ ٤٧٣.

لأنفسكم»[١] فأقبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل «أي الإبل ذات الطفل» على أولادها تقولون: البيعة البيعة قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها[٢] ومن كلام له عليه السلام كلم به كليب الجرمي حين بعثه قوم من أهل البصرة يستعلمون حاله عليه السلام مع أصحاب الجمل فلما بين له الحق، قال له: بايع فامتنع وقال: أني رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع إليهم، فقال عليه السلام: أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائدا تبتغي لهم مساقط الغيث، فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلأ والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب، ما كنت صانعا؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء فقال عليه السلام: فامدد إذن يدك فقال الرجل: فو اللّه ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي فبايعته عليه السلام.[٣] وقال عليه السلام يخاطب طلحة والزبير بعد بيعته، وقد عتبا عليه في ترك مشورتهما: واللّه ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة ولكنكم دعوتموني إليها ، وحملتموني عليها فلما أفضت إلي نظرت إلى كتاب اللّه وما وضع لنا و أمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استسن النبي صلى الله عليه وآله فاقتديته. فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته، فأستشيركما وإخواني من المسلمين ولو

(١)الخطبة ٢٤٧، ١٣٤

(٢) الخطبة ١٣٥ ، ٢٤٩

(٣) الخطبة ١٦٨ ، ٣٠٤

كان ذلـك لم أرغـب عنكمـا، ولا عـن غيركمـا[١] وبسـطتم يدي «للبيعـة» فكففتهـا، ومددتموهـا فقبضتها ثـم تداككتم علي «أي تزاحمتـم» تـداك الإبـل الهيـم علـى حياضها يـوم وردها حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووطيء الضعيف وبلغ من سـرور النـاس ببيعتهم إيـاي أن ابتهج بها الصّغـير، وهدج «أي مشـى مشـية الضعيف» إليهـا الكبير وتحامل نحوهـا العليل، وحسـرت إليهـا الكعـاب «يـرد الإمـام بذلـك علـى المخالفـين الذيـن زعمـوا أن الأمة بايعتـه مكرهة»[٢] وبايعـني الناس غير مسـتكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيّريـن[٣] من كتاب له عليه السلام إلى معاويـة: إنـه بايعني القوم الذين بايعـوا أبا بكر وعمر وعثمـان علـى مـا بايعوهم عليـه فلم يكن للشـاهد أن يختار، ولا للغائـب أن يـرد وإنمـا الشـورى للمهاجريـن والأنصار فإن اجتمعـوا علـى رجل وسموه إماما كان ذلـك لله رضا فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة، ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلـوه علـى أتباعه غير سـبيل المؤمنـين، و ولاه الله ما تولى[٤] ومـن كتاب له عليه السلام إلى معاوية: لأنهـا بيعة واحدة لا يثنى فيها النظـر، ولا يسـتأنف فيها الخيار الخارج منهـا طاعن، و المروي

---

(١) الخطبة ٢٠٣ ، ٣٩٧

(٢) الخطبة ٢٢٧ ، ٤٣٠

(٣) الخطبة ٢٤٠ ، ٤٤٢

(٤) الخطبة ٢٤٥ ، ٤٤٦

فيها مداهن[1] من كتاب له عليه السلام إلى طلحة و الزبير: أما بعد فقد علمتما وإن كتمتما، أني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى بايعوني، وإنكما ممّن أرادني و بايعني و إن العامة لم تبايعني لسلطان غالب، ولا لعرض حاضر أي لم تبايعه خوفا و لا طمعا»[2].

نكث البيعة

على كل تقدير يكون أمير المؤمنين عليه السلام إمام مفترض الطاعة ويحرم الخروج عليه وإلا يكون الخارج عليه «ناكثاً للبيعة» وهذه التسمية صدرت من النبي فـ«عن الأصبع بن نباتة عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بالطرقات والنهروانات وبالشعفات قال أبو أيوب قلت يا رسول الله مع من تقاتل هؤلاء الأقوام قال مع علي بن أبي طالب»[3]، ولا وظيفة للإنسان المسلم إلا أن يتبع النبي صلى الله عليه وآله في هذه التسمية وغيرها فقد حدد صلى الله عليه وآله جانب الحق في علي فقد أخبر الأمة أن الحق مع علي وعلي مع الحق وكذلك القرآن فهو لا يفارق علي وعلي

---

(١) الخطبة ٢٤٦ ، ٤٤٧

(٢)تصنيف نهج البلاغة لبيب بيضون ٤٥٦.

(٣)المستدرك الحاكم النيسابوري ج٣ ص١٤٠.

لا يفارقه وبا لجانب الآخر يحدد ﷺ الظالم من الطرفين فقد «روى الحاكم من طرق متعددة أن عليا ذكّر الزبير بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له لتقاتلن عليا وأنت ظالم له فرجع لذلك وروى يعقوب بن سفيان وخليفة في تأريخهما من طريق عمرو بن جاوان با لجيم قال فانطلق الزبير منصرفا فقتله عمرو بن جرموز بوادي السباع»[١]، وخروجه من المعركة ليس كافياً في توبته فقد كان سبباً من أسباب تجميع ا لجموع وتكثيرها فكان عليه أن يؤدي دوراً في هداية هؤلاء وكان من واجبه نصرة جبهة الحق وخاصة أنه صاحب التأريخ ا لجليل فقد «كان علي عليه السلام يقول: ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله، فأفسده وعبد الله هو الذي حمل الزبير على الحرب، وهو الذي زيّن لعائشة مسيرها إلى البصرة، وكان سبابا فاحشاً، يبغض بني هاشم، ويلعن و يسب علي بن أبي طالب عليه السلام»[٢].

نتائج وعبر

من ضروريات الدين الإسلامي أن مبغض الإمام علي عليه السلام وسابه منافق بنص حديث رسول الله ﷺ وحديث تأثير هذا

(١)فتح الباري ابن حجر ج٦/ ١٦٢.

(٢)شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج٤/ ٨٠.

المنافق على خالته نجده في مصادر من لا يهتم بالرفض وغيره فقد روت بعض المصادر أن هذه الخالة كانت بعد الحرب تقول إذا مر ابن عمر فارونيه «فلما مر بها قيل لها هذا ابن عمر فقالت يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري قال رأيت رجلا قد غلب عليك يعني ابن الزبير فكل هذه الروايات تدل على ندامة عائشة رضي الله عنها ندامة كاملة وحتى اعتبرت مسيرها حدثا في حياتها وكانت من نيتها أولاً أن تدفن في بيتها ثم انصرفت عن ذلك فقال إني أحدثت فأوصت أن تدفن في البقيع»[1]، وقد ذكر في الصحاح والمسانيد أن أحد أسباب المنع من الشرب من حوض الكوثر هو الإحداث بعد رسول الله ﷺ أو التغيير والتبديل والرجوع القهقري وفي هذا كله عبرة لمن اعتبر فالصحابي الذي يرافق الرسول ﷺ قد يبدل ويغير بل والأخص من الصاحب وهو الزوج قد يحدث منه ذلك بل من يعده الناس من أهل البيت فيزيغ عن الطريق المستقيم وهذا هو الدرس الكبير فعلى الإنسان ومهما بلغ في مراتب الكمال والقرب من الله سبحانه فعليه أن لا يأمن الانحراف والزيغ عليه أن يفكر بالثبات على المبدأ ويسأل الله حسن العاقبة فما أقبح النهاية التي تكون بالشكل الآتي «مروان بن الحكم رمى طلحة يوم الجمل وهو واقف إلى جنب عائشة بسهم فأصاب ساقه ثم قال والله لا أطلب قاتل عثمان بعدك أبدا فقال طلحة لمولى له أبغني مكانا قال لا أقدر عليه قال هذا والله سهم أرسله الله اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى ثم وسد حجرا فمات»[2].

---

(١)مسند ابن راهويه ٢/ ٣٥.

(٢) الطبقات الكبرى محمد بن سعد ج٣/ ٢٢٤.

بقت ساحة المعركة خلو من قيادة الرجال ويمكن أن نفهم أن القيادة بقت بيد المرأة من كلمة تُروى عن أبي بكرة «قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام ا لجمل بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب ا لجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: لن يفلح قوم وقال الترمذي: حديث حسن صحيح قلت: والحسن هو البصري، وهو مدلس، وقد عنعنه في جميع الطرق المشار إليها لكن للحديث طريق أخرى عن أبي بكرة، أخرجه أحمد «٥ / ٣٨ و٤٧» من طريق عيينة: حدثني أبي عن أبي بكرة بلفظ: لن يفلح قوم أسندوا أمرهم امرأة قلت: وإسناده جيد، وعيينة هو ابن عبد الرحمن بن جوشن، وهو ثقة وكذلك أبوه»[١].

---

(١)إرواء الغليل محمد ناصر الألباني ج٨/ ١١٠.

الخلاصة

لقد أكثرنا من الاستشهاد بالنصوص وخاصة من علماء جمهور المسلمين ليكون أرجى للعذر ورفع اللائمة وأبعد عن شبهة التعصب ومن جهة أخرى أن هذه المضامين وغيرها الكثير موجودة في كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام مما يشكل إجماعاً، ومعلوم أن الأمة الإسلامية لا تجتمع على خطأ ولسنا في مقام تقييم الأشخاص بقدر ما نحن بصدد قراءة الموضوع حسب نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة ويمكن إجمال نتائج البحث بما يلي:

١- إن اختلاف الأمم بعد رسلها ناشئ من اختيار طريقي الكفر والإيمان بعد العلم الحاصل من الدلائل الواضحة وسبب هذا الاختلاف هو البغي.

٢- دعا الله سبحانه المسلمين للاستجابة لدعوته الجارية على لسان رسوله وحذرهم الفتنة التي يشعلها الظالمون منهم لكن شرها لا يختص بهم.

٣- إن من وظائف زوجات النبي صلى الله عليه وآله القرار في البيوت وعدم الخضوع بالقول فيطمع مرضى القلوب وعدم المشاركة في الأمور العامة وحرمة الزواج بهن حتى لا يتم استغلالهن في المطامع السياسية وغيرها.

٤- هناك تحذير نبوي لأزواجه صلى الله عليه وآله من نبح كلاب الحوأب.

٥- إن النبي صلى الله عليه وآله قد حدد المحق في المعركة و«الظالم فيها».

٦- إن علياً عليه السلام على كل التقادير إمام واجب الطاعة لا يجوز الخروج عليه وكان قتاله بأمر النبي صلى الله عليه وآله للناكثين وغيرهم.

٧- لا يمكن حمل فعل الناكثين على الاجتهاد لأن ذلك يفتح الباب لكل من يتعدى حد من حدود الله.

٨- لا يمكن للمسلم المعاصر أن يتخذ من هؤلاء الذين سببوا بإراقة الدماء الكثيرة أسوة وقدوة ويتبع آثارهم بعد دعوة القرآن للوحدة ونبذ الفرقة.

٩- يمكن أن تقرأ هذه المعركة وفق معطيات القرآن الكريم والسنة الشريفة.

١٠- لقراءة التأريخ حكم كثيرة وهي من الوظائف الشرعية.

ولا ندعي أنا أحطنا بالموضوع إحاطة تامة بل بذلنا ما بوسعنا بذله وعلى الآخرين أن يساهموا بإثراء الموضوع بالملاحظات والنقد.

ونسأل الله لنا ولهم

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه

والباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

المصادر بعد القرآن الكريم

حاشية على شرح ابن المحلّى على متن جمع الجوامع. البناني

تأريخ مدينة دمشق/ ابن عساكر

سير أعلام النبلاء/الذهبي

المعجم الأوسط /الطبراني

التفسير القرآني للقرآن/ الخطيب

الميزان في تفسير القرآن/الطباطبائي

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم/الالوسي

الدر المنثور في تفسير المأثور/السيوطي

البرهان في تفسير القرآن/البحراني

المستدرك/الحاكم النيسابوري

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد / ابن عجيبة

مفاتيح الغيب/ الرازي

تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير

التحرير والتنوير/ابن عاشور

التفسير الحديث / دروزة

فتح الباري/ ابن حجر

مجمع الزوائد/ الهيثمي

شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد

المسند /احمد بن حنبل

زاد المسير/ابن ا لجوزي

التاريخ/ بن الخياط

تحفة الأحوذي / المباركفوري

فتح الباري / ابن حجر

نحو إنقاذ التأريخ الإسلامي/المالكي

السلسلة الصحيحة /الالباني

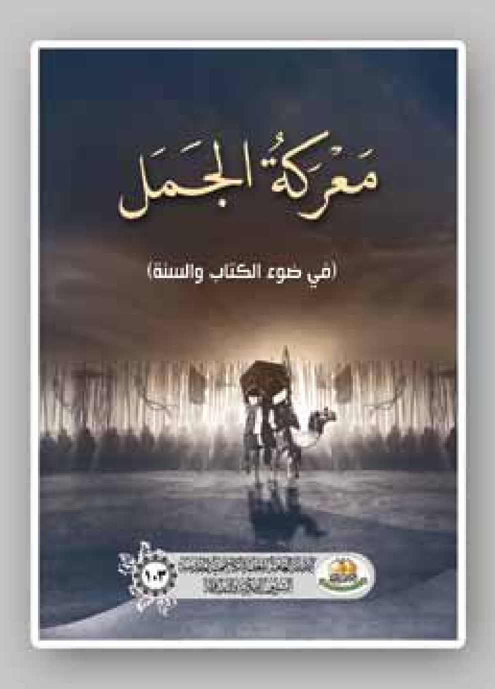
تصنيف نهج البلاغة / لبيب بيضون

المسند /ابن راهويه

الطبقات الكبرى/بن سعد

إرواء الغليل /الألباني

الفهرست



الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

زورونا www.aljawadain.org





راسلونا fikriya@aljawadain.org